حوريَّة من الجنة

.. جلست ترتِّب الأعشاب والزهور، ضاعت بين تفاصيلها، راحت ترشح الماء عليها بصمت، تنهَّدت .. لامست يدها بياض الحجر فاحتقن دمعها، تمنَّت لو أنَّها تهوي فوق ذاك الحجر، لو تضمُّه، اقتربت منه .. حاولت أن تشمَّه، غاصت في خفايا ذرَّاته، ابتسمت بعمق....

كانت أجمل أيام حياتي حين أراك تبتسم لي، تلك الابتسامة التي خطفت يوماً ما قلبي وما أعادته إلى الآن، من أيِّ سحر صوَّرك الله..؟ من أيِّ طينة جبلك..؟ ولمَ أنت دوناً عن سواك ؟ أتراها عيناي رأتا فيك كلَّ هذا البريق..؟ لو كانتا هما السبب لأطغيت العقل عليهما شاءتا أو أبتا، لكنَّ كلَّ شيء كان يحدِّثني عن جمالك وجمال روحك، وجمال صورتك، وجمال حديثك، كلُّ شيء كان في صفِّك، وكأنَّ الحياة قد فُتحت لك على مصراعيها لتعبَّ من نعيمها ما تشاء، فتحظى بالدين والخُلُق والحسب والنسب والعلم والثراء والشباب..

عندما كنت تُذكر أمام الزميلات.. كانت العيون تبرق والوجوه تشرق، وأنا أغار.. أغار بصمت، تماماً كما أحبك بصمت، أعلم أنهنَّ جميعهنَّ يرين فيك فارس أحلام لا يفوَّت، وأعلم أنَّ هناك منهنَّ ومن غيرهنَّ من تجرأت وعرضت عليك الزواج بها، وكنت تعزف عن الجميع بابتسامة وحياء، وأنا أرقبك من بعيد.. وأخشى أن تجمعني في زمرتهن. لا ألومهنّ، فأنت ذاك الملاك الذي يبهر الجميع، ولكن.. لمَ ألوم نفسي مراراً وتكراراً..؟ لمَ أصارع خفقات قلبي التي ما عرفت الحياة قبلك..؟ لمَ أحقن دمعي في محجر عيني وذرّات كياني تصرخ بحبك..؟

عشت مع ذاتي حرباً ضروساً، عنَّفتها.. زجرتها.. أهنتها.. ما فائدة هذا العذاب..؟ كفاك حباً لمن لا يراك، ومن أنت حتَّى يراك..؟.. هو في عليائه.. وحُقَّ له أن يعتلي، وأنت هنا مضمَّخة بالصمت..عاشقة للزوايا ،كعنكبوت يستتر في خفايا الجدران.

لكنني اعتدت على رؤيتك، أحببت عملي لأجلك، وأحببت ساعات الدوام الطويلة كي ألمحك كلَّ يوم ولو مرة، المهم أنَّك موجود في عالمي، أنّك تزيِّن سطور يومياتي.

..حتَّى الآن.. لا أستطيع تفسير تركيبة القدر حينما جمعنا معاً في مهام عمل مشتركة، تلك المهام التي

كانت بداية طور آخر من أطوار حياتي، أن أخرج معك في الأسبوع مرَّة أو مرَّتين خارج جدران المؤسسة لنشرف على ميادين العمل في ورشات البناء التابعة للمؤسسة، جمعتنا السيارة، وجمعتنا الأوراق والأقلام، جمعنا الكدّ والتعب.. وما كنت أشعر به وأنا معك، جمعتنا مواقف وطرائف لا أنساها حتى هذه اللحظة.

كلُّ زميلاتي كنَّ يحسدنني على تلك المهام، فقط لأنك كنت معي، وكنَّ يستجررنني في الحديث، وأنا أمثِّل التجاهل والاستغراب، لا أدري إن أجدت وقتها التمثيل..!ولا أدري إن استطعت إقناعهنَّ بلا مبالاتي، لكن.. لم يكن أمامي من خيار سوى التمثيل، كيلا أنتكس يوماً أمامهنَّ بصدمة لا أريدها، تمكَّنت في تلك الفترة من السيطرة على نفسي واستخدام عقلي، وهو توفيق محض من الله مع أنَّ حبي لك أعظم من كلِّ ما ذكرت.

مضت أربعة شهور على تلك المهام، وقد تعرَّفت نفسيتك أكثر، وفهمت طباعك، وحفظت سريعاً كلَّ ما يزعجك أو يسعدك، نظرتك في الحياة أسرتني، هل كان ينقصني تعلَّق بك..؟ كنت أحب أن أسمعك، أستمتع بانتقاداتك لظواهر في المجتمع، شعرت بنشوى عميقة وأنا أغوص في تفاصيل حياتك، لولا تلك المهام.. من أين كنت سأعرف الألوان التي تحبها والأطعمة التي تعشقها..؟

كانت الأحاسيس تغمرني وأنا معك فأكسوها بصمت غريب، كنت أشعر بالحياء يتغلغل فيَّ من فرقي لأخمص قدميّ، مع ذلك فقد عجز بريق عيني أن يخفى عنك.

كنت أتهرَّب من استفسارات كثيرة حامت حول شفتيك، بل إنَّ كلَّ تصرفاتي كانت توحي بيأس منك، مع أنني ازددت تعلقاً بك وإعجاباً بشخصيتك، لكنك بدوت لي سراباً تهفو نفسي إليه ولا ألقاه، فلست أهلاً لك.. أنت تستحق ملاكاً مثلك، يليق بك، أنت تستحق حورية من الجنة.. وليس أنا، فأنا لا أملك شيئاً من الامتيازات التي تملكها، لا أملك إلا حباً عظيماً لك.. وصمتاً جباراً يكتمه عنك.

ومع ذلك فقد بدأت نفسي تتفلَّت مني وتهرب إليك، ببريق عين، بلهفة في السؤال عنك، شعرت بها تتمرَّد.. تتملَّص من حصاري وقد خنقها، حتى ثارت وهربت مني في ذلك اليوم وقتلت صمتي، كان ذلك حينما وقعتَ من السلَّم فجُرحت قدمك، واضطرَّ يومها العمال إلى تنظيف الجرح وتضميده، كنت أنظر إليك وأبكي بتخفٍّ فاشل،.. يومها قلت لي في السيارة وأنت تبتسم : ألهذه الدرجة تخشين منظر الدم..؟

.. ودونما وعي.. ودونما صراعات وعذابات، بل بدمعة حارَّة خرجت مني، قلت لك وأنا مطرقة الرأس :

.. بل أخشى عليك..!

نظرت إليك.. وإذ بعينيك تتلألآن بلونهما الفيروزي وقد انعكس فيهما شعاع الشمس فراحتا تلتمعان كياقوت أراه لأول مرة، شعرت بخفقات قلبك وكأني أسمعها.. صمتَّ برهة.. فطالت عليَّ لحظات صمتك حتى كدت أندم على ما فهت به..كنتَ مشدوهاً.. اقترب موعد نزولي من السيارة، كما فاجأتك فاجأتني، قلت لي :

هل تقبلين الزواج بي..؟

فَغَر فِيَّ.. وكأنَّ دواراً أصاب رأسي، وكأنَّ أذنيَّ ليستا مني، خشيت أنه السراب يخدعني، ماذا أجيبك..؟ هل أقول لك: إنني أحبك منذ سنين..؟ هل أقول لك: إنك تستحق حورية من الجنة..؟ هل أسألك لماذا أنا دوناً عن سواي..؟ وهل أفوِّت لحظة وارب القدر لي فيها باب السعادة..؟

كنتُ في خدر رائع وأنت تقول لي : لمست فيك حياء جذَّاباً وأنوثة مكتومة، لفتِّ نظري بأخلاقك الشفافة، منذ فترة وأنا متردد في عرضي عليك بالزواج خشية أن تصديني، كنت ألمس إعراضاً منك يوهمني أنني لست الرجل المطلوب، لكنك الآن فاجأتني حقاً..!

هل أعلمك بالحسد الذي أكل عيون الزميلات وأنت

أدرى بهنَّ مني، ما إن علمن بنبأ خطوبتنا حتى لاكتني الألسن دون هوادة.. "يا ما تحت السواهي دواه".. "لقد دبَّرته".. لقد سعت بواسطة إلى المدير كي تخرج معه في مهام العمل تلك،.. "طلعت أذكى منا جميعاً"..!

بحبي لك تخطيت تلك الأقاويل، فقد كنت مشغولة عنها بك، كنت أغرف نعيماً كنت أحسبه من الجنة، عشت معك أياماً ما زلت أدفع ثمن سعادتها من دموع قلبي..!

كنَّ أربع سنوات من الزواج الذي تحلم به كلُّ امرأة، رفعتني معك إلى عليائك فاشتممت هواءك ورأيت بمنظارك، كانت تكفيني متعة أن أنسب إليك، وأعيش معك تحت سقف واحد، نهلت من نعيم القرب منك بنهم، عرَّفتني على مشاعر في الحب كنت تصفها لي وصفاً يفوق وصف الأدباء.. وكانت جميلة.. جميلة مثلك، مضت السنوات الأربع دون أن أشعر بها، فلحظات السعادة تمر سريعاً، كان حلماً أن أجد لديَّ أسرة صغيرة من زوج مثالي وطفلين مثاليين، أتراها مبالغة إن قلت: إن حياتي معك كانت مثالية..؟ لكنها فعلاً كانت كذلك، وبكلِّ مثالية رحلتَ عني.. فجأة.. صحوتُ لأجد نفسي أرملة مع طفلين يتيمين،.. أين تركتنا ورحلت..؟.. أثقلت الكاهل عليَّ يا حبيبي، لم نشبع منك بعد.. طفلانا صغيران ويحتاجان الكثير من

الرعاية، وفقدك قصم ظهري، وكأنني أضعت فردة حذاء الأميرة فغار في سابع بئر لسابع أرض فأنَّى له أن يعود..! وأنَّى لأيامنا الحلوة أن تعود..؟!

هؤلاء اللواتي تمنين مكاني بالأمس بتُّ لهنَّ الآن صورة قبيحة للحظ التعس، كنت أقول لنفسي.. أنا من بين الكلِّ أحظى بكلِّ هذه السعادة..! من حمقي ما دريت أنني المختارة لتحمِّل جبل من الهموم على ظهري، لأكون مصدر تعاسة وهمّ وليس مصدر سعادة وحظ.

ما زلت أدفع ثمن سعادة تلك السنوات الأربع من حزني.. من ألمي.. من ضعفي وعجزي، من شوقي إليك وقد ذبحني، يا ليتني ما تمنيتك، يا ليتك بقيت ذاك الحلم الذي لا أستحقه ويطيح بذهني نشوى القرب منه، أمَّا أن أفقدك بعد أن حفظت رائحة أنفاسك ودفء جسدك..! أشعر بالبرد يا حبيبي.. أشعر بالشوق المخرِّش لشرايين القلب.

أشتاقك في كلِّ لحظة يكبر فيها ولدانا.. وكأنَّهما خُلقا من غير أب، اعتادا فحيح غيابك في وحشة الأيام، امتزج داخل روحهما فجر الحياة بغسق الموت.

أنا أعلم أنك هناك.. في عالمك الآخر.. سعيد.. مسرور، وقد استبدلت بي حورية من الجنة، هي أصلاً التي تستحقك وليس أنا، ومكانك أصلاً هناك بين

الملائكة وليس هنا، فهذه الدنيا لا تتسع لجمال كجمال روحك، ولا يحتمل صدرها سعة قلبك، لم تستطع استضافتك أكثر من أيامك لذلك أكرمَتك بكلِّ ما ملكتْ كي تريك عذرها..!

عشت معك حلماً.. حلماً امتدَّ أربع سنوات وأربعة أشهر، وكي أعيش على ذكرى هذا الحلم الجميل بقية عمري عليَّ أن أكتسي مجدداً بالصمت، فبعد أن رفعتني عدتَ واعتليت.. وأرجعتني إلى حالة التمني.

سأغذِّي قلبي بالصبر وظنِّي بالله كلَّ خير، فالكريم في الدنيا هو كريم في الآخرة.. مهما بعد ذلك اليوم.. سأبقى بانتظار لقاء جديد.. يجمعنا مع ولدينا.. هناك.. في الجنة.. لكنه خالد هذه المرة..!

هطلت دموعها طويلاً، حام طيفه حولها.. ضمَّها.. احتضنها.. قال لها : أحبك.. أحبك أنت..! كان قريباً.. قريباً جداً وكأنَّها تشمُّ أنفاسه.. وكأنَّها تسمع ضحكاته..!